مستشرق يسوعي

الاب يوحنا بلو (١٨٢٢ – ١٩٠٤)

طرفة للاب لويس شيخو اليسوعي

خُلق الانسان للعمل كما خُلق الطائر للطيران . هذا قولٌ قد اجمع على صحّته الفلاسفة فضلًا عن ارباب الدين . الّا انَّ المواظبين على الشغل بلا سأم ولا ملل لقليلون وقد اسعدنا الله بان نحظى بمثال احد اخوتنا الرهبان كان أَلِف الشغل حتى صار فيه كطبيعة ثانية نعني به الاب يوحنّا بلو الذي قضى في رسالتنا السوريّة اربعين سنةً فأدّى بشغله المتواصل للآداب الشرقيّة خدمًا ندر مثلها . وهذا ما حدا بنا الى أن نفرد لهُ في مجلّتنا بعض صفحات لنخلّد بها ذكره شكرًا لهُ على ما اولانا من النصائح الطيّبة في نشرها وتحسينها وكان رحمهُ الله يقرأ كل موادّها ولا يريد فيها خللًا في اختيار موادّها وطريقة انشائها وحسن طبعها جازاه الله خيرًا

*

انَّ زبدة السيرة الرهبانيّة في كلمتين صغيرتين تُعتبران كشعار المترهبين وهما « صلِّ واشتغل » والاب الذي هممنا بذكره قد جعلهما نصب عينيه حتى كانتا تلوحان منهُ في كل اعماله لا يراه الرائي الّا حكيم انهُ قدوة الرهبان ومثالهم الحي

وُلد صاحب الترجمة في غزّة آذار من السنة ١٨٢٢ في « لوكس » بلدة من ولاية برغنديا من اعمال فرنسة فعُرف منذ حداثة سنهِ بالنشاط والجدّ . بيد انَّ تقاه ورغبتهُ في خلاص النفوس حملاه على ان يهاجر العالم ويزهد بالدنيا بعد دروسهِ الاولى في مدرسة ديجون الاكليريكيّة فطلب الانضواء تحت راية القديس اغناطيوس وانتظم في سلك الرهبانيّة اليسوعيّة في ١٨ حزيران من سنة ١٨٤٢ وسعى من وقتهِ ان يضع في نفسهِ اساسًا متينًا للفضائل التي مارسها طول حياتهِ وباشر ببناء ذلك البرج الروحي الذي تكلّم عنهُ المسيح في انجيلهِ فبلّغهُ بجدّهِ وهمّتهِ علوًّا شامخًا

وكانت الدولة الفرنسويّة في تلك الاثناء قد عهدت الى الآباء اليسوعيين بتربية اولاد بعض الذين نفتهم من فرنسة لسوابقهم وكان هؤلاء الاحداث ألقوا البطالة

وسوء السلوك فرضي اليسوعيُّون بتهذيبهم في « بن اكنون » قريباً من الجزائر وتحمَّلوا في ذلك مشقَّات عديدة فطلب الاب يوحنَّا بلو ان يرسل الى ذلك الدير بعد نهاية زمن امتحانه رغبةً في مشاركة اخوته في اتعاب هذا العمل فقضى ثمة سنتين (١٨٤٤—١٨٤٦) استوقف فيهما انظار رؤسائه واسر بحبِّه قلوب تلامذته

وكان في بعض آنات الفراغ يتجوَّل في احياء مدينة الجزائر فرأى عربها وأحبَّ ان يختلط بهم ويخدمهم وذلك ما حدا به الى درس العربيَّة على بعض اساتذة تلك الديار رجاء ان يستفيد بمعارفه ويتوسَّل بها لصلاح الاهلين . ولمَّا ذهب سنة ١٨٤٧ الى قسنطينة (Constantine) توفَّرت لديه الوسائط لمواصلة هذا الدرس فانعكف عليه وألف لفظ تلك البلاد

ثم انكبَّ مدَّة في دير قَلْس قريباً من مدينة لربوي في فرنسة ثلث سنوات على درس الفلسفة والرياضيَّات فبرع فيها حتى انهُ أُوعز اليه بتدريسها بعد ذلك بقليل . على انَّ هذه العلوم لم تشغلهُ عن درس العربيَّة وكان اذا وجد ساعةً لترويح النفس اسرع الى مراجعة اصولها والنظر في آدابها . ولمَّا رأى انَّ بعض رصفائه من طلبة الفلسفة يرغبون مثلهُ في تخصيص نفوسهم لخدمة الناطقين بالضاد من اهل الجزائر او نصارى الشرق في بلاد الشام تولَّى تعليمهم اللغة العربيَّة ووضع لهم تأليفاً افرنسيًّا دعاه اصول القرامطيق العربيّ (Eléments de la Grammaire arabe) في ٢٤٠ صفحة ضمَّنهُ الصرف والنحو ومبادئ علم العروض وطبعهُ على الحجر في دير قَلْس سنة ١٨٤٩ وصدَّره بهذه الآية الكتابيَّة بيانًا لما ينويهِ من تمجيد الله فقط : « كل لسان يعترف لله »

وفي سنة ١٨٥٠ أُتيح للكاثوليك في فرنسة فتح المدارس للتعليم الثانوي فانتدب الاساقفة اليسوعيين لتهذيب الاحداث في الآداب وترويضهم في العلوم فلبَّى اليسوعيُّون دعوتهم وانشأوا عدَّة مدارس تقاطر اليها الطلبة من كل فجٍّ فأرسل الاب يوحنَّا بلو الى اقيليون ثم الى بوردو فدرَّس البيان وتولَّى ادارة الدروس فزاد التلامذة بهمَّته عدداً ونجاحاً . ودفعتهُ رغبتهُ في تنشيط الاحداث وحسن سُمعة المدرسة الى ان يتقدَّم امام اكادمية إكس فحصاً رشَّحهُ لشهادة الباكلوريوس في فنون الآداب القديمة وانجز كل ذلك وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره وقبل ترقيته الى درجة الكهنوت

وكانت المهامّ التي قام بها والخدم التي ادَّاها لم تسمح لهُ بدرس اللاهوت فلم يشأ

الرؤساء ان يحرموه هذه النعمة مع ما عرفوا من سموّ فضائله فسيم كاهناً سنة ١٨٥٢ يوم عيد القطاس بوضع يد السيد فرديناند بونه رئيس اساقفة بوردو والخطيب المصقع الشهير. وبقي في شؤونه الى سنة ١٨٥٤ حيث استطاع الرؤساء ان يخفّفوا العبء عن عاتقه ويعيّنوا له خلفاً في نظارته. فأُرسل الى رومية لدرس اللاهوت ووافق وصوله اليها في سنة اثبات عقيدة الحبل بريم العذراء بلا دنس الخليقة فحضر تلك الحفلة التي قلّما يجري مثلها روعةً وأبهةً في الفاء المصور وهي أبقت في قلبه ذكرًا لم يمحه وطء السنين. وقد حظي ايضاً في خلال دروسه بمعاينة يوس التاسع والتبرّك بلثم اقدامه ثم نال من ألطاف عمّال الكرسي الرسولي عدّة انعامات روحيّة وذخائر ثمينة كان يحافظ عليها الى آخر حياته بكل حرص وتقى

ثمّ تقلّب الاب يوحنّا بلو بعد نهاية دروسه اللاهوتيّة في اعمال متعدّدة وفاها كلّها حقّها من الاهتمام والكمال نخصّ منها بالذكر تهذيبهُ لطلبة الرهبانيّة في دير كارمون. وهذه المهنة تُعدّ في كل الجمعيّات الرهبانيّة من اهم المشروعات واخطر المراتب لما يترتّب على صاحبها من المسئوليّة لحياة الجمعيّة وترقيها في سبيل الكمال. ولا بُدَّ لمن تُعهد اليه ان يكون هو مثالاً حيًّا لكل الفضائل اذ انَّ عيون المبتدئين شاخصة اليه ينسجون على منواله ويقتدون باعماله اكثر منهم باقواله. والحقُّ يُقال انَّ الرؤساء احسنوا في اختياره لهذا العمل الذي تولّاه مدّة خمس سنوات بغيبة لا تعرف السأم. وقد سمعنا غير واحد ممّن كانوا تحت تدبيره انهُ لم يفرض على مرؤوسيه فرضاً الّا يتقدّمهم في اتمامه حتى انَّ مبتدئيه كانوا يتنافسون في مجاراته بهذا الميدان الروحي الذي لم يُشقّ لهُ فيه غبار

وكان يرأس دير كارمون في ايّامه احد مشاهير الاباء اليسوعيين وهو الاب يوسف بارال (Barrelle) الذي خلّد في فرنسة ذكرًا طيباً باعماله المبرورة ومساعيه المشكورة كما تشهد عليه سيرتهُ المسطّرة في جلدين ضخمين فوجد في الاب يوحنّا بلو لشدّ مؤازر لمشروعاته الخيريّة فكانت رائحة البرّ تسطع بهجتها من ذلك الدير او بالحري من ذاك المقدس الذي كانت تقصده النفوس المشغوفة بالكمال وممارسة الفضائل المسيحيّة. ولمّا توفّي الاب بارال برائحة القداسة في ١٧ تشرين الاول من سنة ١٨٦٣ خلفهُ في رئاسته رجلٌ آخر من اسرة فرنسويّة شريفة يدعى الاب دي فورستا لم يكن دون الاب بارال

الاب يوحنا بلو

المستشرق اليسوعي (١٨٢٢-١٩٠٤)

فضلاً وفضيلةً وهو منشئ المدارس الرسولية التي ادّت للرسالات الاجنبيّة خدماً لا تحصى فكان هذا يعتبر الاب يوحنا بلو كرجل الله ولا يأتي امرًا دون مشورته

ومن آثاره في تلك المدّة تاليف بعض الكتب الروحيّة التي اقبل عليها القرّاء فنفدت بزمن قليل منها كتاب « في الصلاة كسلاح المسيحي » طبع سنة ١٨٦٤ وكتاب آخر « في مواهب الروح القدس السبع » نشره في كلرمون سنة ١٨٦٥ وكتاب ثالث « في الدعوة الى السيرة الرهبانيّة » طبع في ليون سنة ١٨٦٦

*

وكان صاحب الترجمة مع نشاطه الغريب في فلاحة كرم الربّ لا يزال يطلب من الرؤساء ان يُرساره الى حيث يمكنهُ ان يتفانى في سبيل الخير وخلاص القريب في الاقطار النازحة عن وطنه ليكون الله غايتهُ القصوى بعيدًا عن كل سلوة بشريّة . وكانت رغبتهُ ان يرجع الى بلاد الجزائر لكنَّ الطاعة اوعزت اليه بان يركب البحر الى سوريّة . فطفح قلبهُ فرحًا لهذه البشرى وابحر الى بيروت في اوّل خريف سنة ١٨٦٦

ما كاد المُرسل الجديد يطأ ارض بلادنا حتى افرغ كل همة في اتقان اللغة العربيّة ليساعد بمعرفتها اخوتهُ في الاعمال الروحيّة فقضى سنتهُ الاولى في مدرستنا المنشأة في غزير بصفة اب روحي وكان مع درسهِ للعربيّة يعلّم اللاهوت الادبي ويرشد الطالبين للترهّب وغير ذلك مما يثقل عبئهُ على غير واحد

ثم دعاه في العام المقبل رئيس الرسالة الى بيروت فقدمها ولم يخرج منها الى آخر حياته فصرف ٣٦ سنة في انفع الاعمال لخير البلاد ولمجد الكنيسة . وقد عرفناه طول هذه المدّة فيمكننا ان نشهد لهُ — ولا نخاف ان يردّ احد ممّن عرفهُ شهادتنا — بانهُ كان مرآةً لكلّ الفضائل الرهبانيّة ومنشطاً لكل المساعي الانيرة

وكان مما عُهد اليه في اول وصوله بيروت ادارة المطبعة فدخلت بهمّته في طور جديد فانهُ هو الذي باشر لاول جريدة كاثوليكيّة في هذه الديار وكان ذلك سنة انعقاد المجمع الفاتيكاني فوُسمت به الجريدة لمدافعتها عن تعاليمه وكان اذ ذاك قطعها قطع رُبع . وفي السنة التالية ظهر بدلًا منها « البشير » فنهج لهُ الاب بلو خطّتهُ الدينيّة التي لم يحدْ قط عنها وجعلهُ منارًا تستضيء به كل ابناء الكنائس الشرقيّة . وقد منحهُ الله ان يرى

هذه حبّة الخردل تنمو فتمدّ اغصانها كالادواح الباسقة حتى انّها حظيت كل حظوى لدى الكرسي الرسولي وممثلي الطوائف الكاثوليكيّة الاجلّاء.

ولمّا رأى مكاتب الاحداث في حاجة الى كتب مدرسيّة لدرس العربيّة اخذ في تأليف مجموع ذي خمسة اجزاء رتّبهُ مع الاب اغوسطينوس رورده ومساعدة جناب اللغوي الشيخ ابراهيم اليازجي نعني به كتاب « نخب الملح » الذي طُبع بالشكل الكامل في السنة ١٨٧٠ وتمّ سنة ١٨٧٤ فاقبل عليه ارباب المدارس وتكرّرت طباعتهُ مرارًا عديدة

وممّا سعى به عملٌ جليل افاد الكنائس الشرقيّة اعظم فائدة تعريب الكتاب المقدّس فانّ الاب يوحنّا باو وان لم يكن من معرّبيه لكنهُ اجدى العمل حسنًا بمراجعته كل اللوازم الطبعيّة واصلاحها ومقابلتها على النسخ الاصليّة المعتمد عليها في كنيسة الله مع حرصه على جودة طبعها والاسراع في الشغل . ولمّا نجز هذا التأليف استفاد منهُ لتصنيف عدّة كتب روحيّة ومدرسيّة فطبع الاناجيل الاربعة واضاف اليها فهارس لقراءة الفصول اليوميّة على حسب ترتيب الطقوس الكاثوليكيّة . ثمّ جمع سيرة السيد المسيح كما هي في الروايات الانجيليّة ونظمها بحيث جعلها رواية واحدة مسرودة على سياق تاريخ اعمال الرب من ميلاده الازليّ الى صعوده الجليل الى السماء وهو كتاب القلادة الدرّيّة جارى فيه ديادوكوس طاطيانوس وحذا حذو الاب بتريزي معلّم في الكليّة الرومانيّة وزيّن الكتاب بخارطة لمدينة اورشليم كما كانت في عهد المسيح . وكذلك اقتطف لاحداث المدارس اجمل روايات الاسفار المقدّسة في ثلاثة اجزاء وسمها باسم الغصن النضير وقد طُبعت طبعات متوالية

وكان في اثناء ذلك يسعى بمطبوعات اخرى دينيّة اعظمها شأنًا « كتاب مروج الاخيار في تراجم الابرار » كان الاب بطرس فروماج عرّبهُ قديمًا فعُني الاب يوحنّا باو بمراجعة عربيّته مع الشيخ الفاضل سعيد افندي الشرتوني وزاد عليه تراجم الولياء الله الذين ادرجت الكنيسة اسماءهم حديثًا في مدارج القديسين فطبعهُ اولًا سنة ١٨٧٨ ومنهُ اجتنى بعدئذٍ « قطف الازهار من مروج الاخيار » جعلها كراريس منفردة ليطالعها احداث المدارس وزيّنها بالتصاوير واتقن تجليدها

ومما عُني به ايضاً في ذلك الوقت تنقيح « شرح التعليم المسيحي » الذي عرَّبهُ الاب فروماج فنشره سنة ١٨٧٥ واعاد طبعهُ سنة ١٨٨٢

وللاب بلو كتب أخرى دينيَّة الفها او نقَّحها كرياضات القديس اغناطيوس مع شروح الاب جانسو وتساعيَّات لاكرام القديسين يوسف واغناطيوس وكفاريوس وكتاب قلائد الياقوت في واجبات الكهنوت ترجمة الاب فروماج . هذا فضلاً عن تآليف أخرى عديدة كان هو الساعي في طبعها ومراجعة ملازمها كالكمال المسيحي للاب رودريكوس ومدخل العبادة للقديس فرنسيس دي سال والعهد العتيق والجديد للخوري رويومند وغير ذلك

ومع وفرة هذه المطبوعات قد استحقَّ الاب بلو شكرًا خاصًا لدى المستشرقين الاوربيين بما وضع لهم من التآليف لدرس اللغة العربيَّة وتقريب معضلاتها وقد عرفوا لهُ فضلهُ واثنوا مرارًا على مصنَّفاتهِ الجليلة فمن ذلك معاجمهُ الثلثة اعني الفرائد الدريَّة في اللغتين العربيَّة والافرنسيَّة وقاموسهُ المطوَّل الفرنسويّ والعربي في جزئين مع مختصره وهذه الكتب لجلّ فوائدها وحُسن تنظيمها صارت من جملة الكتب المدرسيَّة في اغلب الكليَّات الاوربيَّة ولم يزل مؤلفها ينظر فيها وينقحها ويزيد عليها الى آخر ايَّام حياتهِ . ومنها ايضاً غرامطيقهُ الفرنسويّ في مبادئ اللغة العربيَّة طبعهُ طبعتين والحقهُ بتمارين وجداول . وكذلك اهتمَّ بستين عديدة بطبع تقويم البشير وضبط حساباتهِ

هذه بعض اعمال ذلك الراهب الهمام الذي صحَّ فيهِ قول احد الكتبة عن رجلٍ مثلهُ « انهُ كان مصلوبًا بقلمهِ » تراه ابدًا في كتابة او تأليف . قلنا انَّ هذه بعضٌ من اعمالهِ لانَّ الاب بلو بصفة كونهِ مديرًا للمطبعة كان ينظر في كل المطبوعات ويُصلح ملازمها مرَّة ومرَّتين وهو شغل عملٌ لا يعرف ثقل وطأتهِ الَّا من باشره وقد لزم هذا العمل مدَّة نيّف وثلاثين سنة دون سأم ولا استثقال . ولذلك كان العملة كلُّهم يعتبرونهُ كاحد اولياء الله ولا يذكرونهُ الَّا بالخير

*

والحقُّ يقال انَّ فضائل الاب بلو كانت اعظم من فضلهِ لا نذكر منها الَّا شيئاً قليلاً ليتحقَّق القرَّاء انَّ كلامنا ليس تقريظاً فارغاً بل هو عين الحقّ . واوَّل ما يجدر بنا ذكره انهُ لم يطلب من اشغالهِ كلها غير وجه الله فاذا مدح كاتبٌ احدَ تآليفهِ لم

يكثرث لمدحه وان انتقد عليه منتقد شكره واقرّ بسهوه اذا وجد نقده صحيحاً . وكثيرًا ما كان يستشير اخوته الرهبان منقادًا لحكمهم بسذاجة الطفل شاكرًا لفطانهم . وكان على عكس ذلك اذا ادّى لاحد خدمةً لا يحفل بما صنع ويأبى ذكر عمله مهما كان عظيمًا

ومن فضائله تواضعهُ العميق فانهُ كان يعدّ نفسهُ كآخر اخوته لا يرى لنفسه على احد فضلًا واذا ظنّ انهُ فرط منهُ ما يكدّرهم اسرع الى ارضائهم والاستغفار منهم عمّا اساء به اليهم . ولمّا عُهدت اليه مهنة المدبر مدّة سنين عديدة كان يقوم بوظيفته هذه اي قيام فيعدّ ذاتهُ كخادم الجميع ويُعنى بحاجاتهم كلها لا ينسى في خدمتهم الّا نفسهُ

وكانت محبّتهُ للقريب من سماته الخاصّة فمن ذلك انهُ رحمهُ الله لم يتفوّه قطّ طول حياته بكلمة واحدة تمسّ صيت الغائبين . وكان اذا بلغهُ انّ احدًا أُصيب بمصيبة او ناله فرح اسرع الى تعزيته او تهنئته وشاطره حزنهُ وفرحهُ . ومن ذلك شفقتهُ على المرضى اذ كان يعطف عليهم كما تعطف الام على بنيها ويلطّف اوجاعهم ما استطاع . ومن ذلك ايضاً حنوّهُ على عملة المطبعة ومتوظفيها يهتمّ بصالح كل واحد منهم ويجتهد لهُ شغلًا يغني بمعاش عياله واذا اتفق انهُ وبّخ احدهم ثمّ بان لهُ انّ التوبيخ في غير محلّه لا يهدأ لهُ بال حتّى يستسمح منهُ عذرًا فلم يشكّ احدٌ منهم بسلامة سريرته ولستقامة نيّاته وقداسة سيرته

وكانت عنايتهُ بالنفوس وغيرتهُ على خلاصها القريب اعظم واشهر وهذا ما حملهُ على نشر كتب دينيّة عديدة يجد فيها ابناء الكنيسة قوتًا لارواحهم ونورًا لعقولهم وتعزيةً لاوجاعهم . ومن ذلك ارشاداتهُ التقويّة فانّنا سمعناها مرارًا وتعجّبنا من سموّ معانيها وقوّة حجيجها وقد ابقى منها كراريس ضخمة . وكان في شبابه وكهولته يحبّ شرح التعليم للاحداث والجهّال فيترك لذلك دروسهُ العزيزة جدًّا بتفقيه عقول القرويين في فرنسة وايطالية . وهذه العناية بالنفوس اظهرها خصوصاً بملازمة سرّ التوبة فانهُ الى آخر ايّام شيخوخته كان يحبس نفسهُ ساعات طويلة رغمًا عن برد الشتاء وحرّ القيظ في كرسيّ الاعتراف لسماع التائبين الآتين لتنقية ضمائرهم لديه

امّا حبّهُ لخالقه فحدّث عنهُ ولا حرج فانّ هذا الرجل الصالح كان حقيقةً على حسب وصيّة الرسول « نفحة المسيح الطيّبة » فكان اذا رآه احد مصليًا او جاثيًا امام القربان

الاقدس او مقدّماً للذبيحة الالهيّة شعر بانهُ كان مأموراً من الله . بل كان يظهر من كل تصرّفه في كلامه واعماله انّ حديثهُ في السماء

وهي الحميّة السامية لربّه التي كانت تدفعه الى المحافظة على كل قوانين الرهبنة لا يهمل منه شيئاً البتّة . وكذلك حفظه للنذور الرهبانيّة فمن عفّته الملائكية انه كان شديد الحفظ على حواسه يأنف من اصغر اللّمم وهو مع ذلك يتقي ضميره مرارًا في الاسبوع وان لم يجد معلّمه الروحي مادّةً كافية لحلّه . ومن حبّه الفقر انه كان لا يدع في غرفته كتاباً او شيئاً ممّا ليس له به حاجة ماسّة لشغله . وفي اثناء مرض اضلال دعاه قبل عشرين سنة استدعى رئيسه ليقرّ له بذنب اتاه وهو انه اخذ من احد اخوته دون اذن قبعة عطوس استنشقها . امّا طاعته فكانت عجيبة لا نظنّ انّ رؤساءه وجدوا راهباً اطوع لاوامرهم منه وذلك لانه كان يعتبر فيهم الممثلين للسلطة الالهيّة . وليست الصورة التي اثبتناها في هذا العدد الّا ثمرة طاعته فانه كان يأنف من ان يوخذ رسمه بالتصوير فما تقدّم اليه رئيسهُ بالقبول حتّى اجاب ملبّياً ولم يشأ ان ينظر اليها لمّا نجزت

هذا ونضرب عن ذكر اعمال اخرى كثيرة لو اوردناها لاخذ قرّاءنا العجب من براعة صاحبها . وقد بلغ شيخوخةً طيّبة ومع ما كان يكابد قبل وفاته باشهر من ثقل العمر واسقامه كنّا نراه مثابرًا على الشغل مجتهدًا في اصلاح ملازم المطبعة جهد امكانه . ولمّا احسّ بقرب المنيّة استقبلها بكل ارتياح وطلب ان يُمسح المسحة الاخيرة فقبلها بكلّ هدوء فرحاً لقرب التقائه بربّه . وكان يأبى التمدّد على فراشه خشيةً من ان ينام ويُحرم التلذّذ بمناجاة الخالق . ولمّا كان احد اخوته يحضّهُ على تقدمة اوجاعه لله اجاب ثلاثاً : « نعم اني اقدّم لهُ كل شيء » . وفي ١٤ آب من السنة الجارية اطفأ سراج حياته براحة القداسة بين اسف الجميع على خسارته . ووافق موته يوم عيد السيّدة وهو كان من اعظم المتعبدين لها والساعين بخدمتها فلا ريب انّ هذه امّ المراحم تقلتهُ الى دار الخلد لتمتعهُ بنظرها يوم عيدها البهيج اجزل الله ثوابهُ ونفعنا بشفاعته